

❖ انعدام الوحدة في النضال لدى ملوك الطوائف

✍ أ.ة. سامية جباري

أستاذة مساعدة مكلفة بالدروس

- جامعة الجزائر -

لقد سعى الفاتحون الأولون للأندلس إلى بسط العدل وإقرار مبدأ المؤاخاة والمساواة بين الأجناس المختلفة المكونة لهذا المجتمع، فقصوا على الظلم والاستبداد، ومحووا آثار الفرقة والاختلاف، وشكلوا بذلك نموذجا فريدا للتسامح والتعايش بين الشعوب والأجناس المتعددة من عرب وبربر ومستعربين ويهود ومولدين وصقالبة، وغيرهم من الطوائف الوافدة على البلاد من مختلف الأصقاع لتنصهر ضمن وحدة اجتماعية تميزت بخصائص حضارية مشتركة⁽¹⁾ إلا أن الأمر لم يدم، فالأحداث التي وقعت بالمغرب من اضطراب للأمر وتغلب للبربر حيث كثرت فتن الخوارج من الصفيرية والإباضية التي كان لها بالغ الأثر في توجيه سياسة الدولة بالأندلس، فقد ثار البربر في مختلف النواحي، وبالأخص في جليقية وماردة وقورية والبيرة، فأضحت البلاد مسرحا للفتن والاضطرابات نتيجة العصبية القبلية حتى فيما بين العرب أنفسهم ثم فيما بينهم وبين البربر.

ولما تولى الأمويون الحكم بالأندلس حاولوا بسط نفوذهم بداية بعبد الرحمن الداخل الذي بدأ بتدوين الدواوين ورفع الأواوين، وفرض الأعطية وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد وأوثق الأوتاد فأقام للملك آله وأخذ للسلطان عدته⁽²⁾ لذلك قامت دولته على المساواة بين العصبية القبلية، ولم يترك مجالا للتعسف والفوضى والاستخفاف بالناس، واستطاع بفضل سياسته الحكيمة أن يتغلب على الثورات، فثبت دعائم ملكه وبرزت معالم



انعدام الوحدة في النضال لدى ملوك الطوائف

حضارة جديدة، ثم ازداد البلاط القرطبي ضخامة ووجاهة بتولي عبد الرحمن الناصر سدة الحكم إذ في عهده بلغت الأندلس ذروة القوة والحضارة والوجاهة، فقد تولى الأندلس وهي جمة تخدم ونار تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق وارتجت الآفاق فسكنها الله بسعده وعز نقيبته⁽³⁾ فكثر القادة في جيشه، ومدت إليه أمم النصرانية يد الإذعان وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة وقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلام⁽⁴⁾ فمكّنه ذلك من امتلاك سبته وما يليها من أقطار وطرد عنها ملوك الأدارسة وأطاعته البربر في جميع نواحيها.

وعندما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد آخر خلفائهم الذي كان قاصرا فوقع في وصاية المنصور بن أبي عامر، الذي صار صاحب التدبير المتغلب على الأمور، حيث أقام الهيبة لنفسه ودانت له أقطار الأندلس كلها ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتابة اسمه في السكة والطرز⁽⁵⁾.

وقد حارب المنصور بن أبي عامر الإسبان ووسع رقعة الأندلس في نحو ست وخمسين غزوة ذكرها المقرئ في النفح لم تنتكس له فيها راية ولا فلّ له جيش وما أصيب له بعث وما هلك له سرية⁽⁶⁾ وأجاز عساكره إلى العدو وضرب بين ملوك البرابرة، وضرب بعضهم ببعض، فاستوثق له ملك المغرب وبوفاته دخلت الدولة الأموية مرحلتها الأخيرة بنشوب فتنة أدّت إلى تنازع الأحزاب المختلفة في قرطبة على الخلافة، والتي امتدت نحو ثلاثين سنة، فأزيلت رسوم العامريين في الأندلس وقتل أفرادهم وطردوا وهدمت الزهراء^(*).



أ.سامية جباري

وكان من نتائج هذه الفتنة التي زادت من ضعف الدولة أن عمّت الفوضى بانقسام البلاد إلى عدد من الدويلات الصغيرة، فتفرق أهل الأندلس فرقا وتغلب في كل جهة متغلب⁽⁸⁾ نصّب نفسه ملكا واستقل بإمارته واتخذ من أهم مدينة فيها عاصمته، فكثرت ألقاب الخلافة كالمعتضد والمأمون والمستعين والمقتدر وقد أحسن تصويرهم ابن رشيق إذ يقول:

مما يزهديني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كاهلر يحكي انتفاخا صوله الأسد⁽⁹⁾

فنشأ بذلك ما نسميه في التاريخ الإسلامي بعهد ملوك الطوائف، وقد دام نحو ثمانين عاما اتسم فيها بالتفكك والانحلال السياسي⁽¹⁰⁾ فقد سيطرت على الأندلس ثلاث قوى رئيسية عربية بربرية وعامرية لكل دولة حاكم وإدارة وجيش⁽¹¹⁾ تؤثر مصلحتها الخاصة هدفها رفعة شأنها تنمية ثرواتها وتدعيم سلطاتها وبذخها، يحكمها قانون الأثرة والغلبة، تميزها السطوة والتكالب تحقيقا لمآربها الشخصية، فتشتت شمل الدولة نزل بأهلها أزمات سياسية بالغة من الشدة منتهاها، وأصابهم من الكوارث والحن ما عاينوا منه الهلاك والموت.

وتغيّرت في هذه الحقبة وجهة المسلمين من الأندلس فبعدها كان الفتح العظيم باسم الدين نشرا لتعاليمه وإرساء لقواعده ومبادئه، أصبح الحفاظ على المكتسب من أموال ومغانم ومظاهر ملك قوام تواجدهم، رامين عرض الحائط الأهداف النبيلة التي رسمها الفاتحون الأولون للبلاد.



انعدام الوحدة في النضال لدى ملوك الطوائف

هؤلاء هم ملوك الطوائف خليط من العرب والبربر والموالي، اقتسموا الأندلس فأدى ذلك إلى ضعف المسلمين ومهد السبيل للإمارات المسيحية في الشمال للقيام في وجه أمراء العرب⁽¹²⁾ الذين راحوا يتنازعون الأمر بينهم، فقد كانوا ضعافا في وطنيتهم، ضعافا في دينهم غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود⁽¹³⁾ لهذا فقد بنوا علاقاتهم ببعضهم البعض على الحذر والتحوط، فاستكثروا من الحصون والجند المرتزقة رغبة منهم في التوسع والغلبة على بعضهم البعض.

وانعدمت نتيجة لذلك كلّ إمكانية للتعايش السلمي بين هذه الطوائف وتضافرت عوامل متعددة لتجعل لغة السيف هي الحوار الوحيد بينهم، فنتج عن ذلك كثير من الاصطدامات الدموية التي كان لها صدى في المادة الشعرية.

ولأجل ذلك التمسوا كل السبل التي من شأنها أن تحقق أهدافهم ومصالحهم الدنيوية، فلا مسؤولية أخلاقية ولا عمل من أجل الصالح العام، إنما هي انتهازية واستغلال فرصة وسعي حثيث وراء المال والمجد الزائف من النساء والأطماع فلم يزدحم ذلك إلا لفرقة وضعفا، وقد صوّرهم ابن عذارى بقوله: " ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس تستعر⁽¹⁴⁾ .

وقد بلغ من تنافسهم أن كان بعضهم يستعين بقوات من النصارى مقابل جزية يأخذها الطاغية الذي لم يكن ليرفض نداء الملوك المتنازعين فإذا بالأخوة تتحول إلى عداوة، والتسامح يتحول إلى بغضاء، والسلم يتحول إلى حرب ضروس فحق فيهم قول ابن سارة:



أ.سامية جباري

بنوا الدنيا بجهل عظموها فجلّت عندهم وهي الحقيرة
يهارش بعضهم بعضا عليها مهارشة الكلاب على العقيرة⁽¹⁵⁾

وقد بلغ الاستهتار بهذه الوحدة آخر حدّه وأقصى مداه حين تكالب أمراء الطوائف على بعضهم البعض، وقبلوا من أجل الاحتفاظ بألفاظهم الفارغة من كل معنى أن يتنازلوا عن مواقع المسلمين وحصونهم، وأن يؤدوا الجزية للنصارى لقاء حمايتهم، بل وأن يرددوا عن دينهم ويعتنقوا النصرانية إذ كان لا سبيل للمحافظة على مصالحهم الخاصة إلا عن هذه الطريقة⁽¹⁶⁾ فأضحوا محطّ سخرية النصارى، ولعل أحسن ما يصور حالهم الرسالة الشفوية التي وجهّها ألفونسو للمعتمد بن عباد والتي جاء فيها:

"كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد، المعتمد.... كل واحد لا يسئل في الذب عن نفسه سيفاً ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً"⁽¹⁷⁾، وأصبح العدو النصراني ينتهز كل الفرص المتاحة لأجل ضرب هؤلاء الملوك بعضهم ببعض فيساند تارة هذا وتارة أخرى ذاك مقابل مغنم كثيرة ومطامع لا تنتهي.

وقضية التحالف مع القوات النصرانية لم تكن غريبة في المجتمع الأندلسي زمن الطوائف فغالبا ما كان هؤلاء الملوك يلجأون إلى هذه الوسيلة بالرغبة والطلب، ولم يكن هذا التحالف ضد عدوّ مشترك بل كان ضد قوات المسلمين شركاء الدين والمصير والتاريخ، مثالها التحالف الذي عقده المعتمد بن عباد مع ملك قشتالة ألفونسو السادس لافتتاح غرناطة فدفّع له مقابل الحلف خمسين ألف دينار ومقتضاه أن تكون المدينة للمعتمد وتكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو⁽¹⁸⁾.



انعدام الوحدة في النضال لدى ملوك الطوائف

أمّا ابن هود فقد راسل فردلند الطاغية وبعث إليه بأموال جمّة وهذا نظير خروجه إلى ابن ذي النون⁽¹⁹⁾.

وكان يرى هؤلاء الملوك في سطوتهم على المدن المجاورة محل اعتزاز وفخر كالذي حدث مع المعتمد في محاولته مساندة بني جهور أصحاب قرطبة بعدما أغار عليهم ابن ذي النون صاحب طليطلة، وقد تمكن المعتمد من الدفاع عن قرطبة وحقق النصر المؤزر إلا أنه لم يعدها إلى أصحابها بل استولى عليها وضمها لملكه، ورأى في استلائه على عاصمة الخلافة الأموية ببعديها الديني والسياسي مجالا للافتخار ببسالته فجادت قريحته شعرا جاء فيه:

من للملوك بشأو الأصيد البطل هيهات جاءكم مهديّة الدول
خطبت قرطبة الحسنة إذ منعت من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فأصبحت في سوى الحل والحلل⁽²⁰⁾

وفي نشوة هذا الانتصار يقف ابن القصيرة شاعر البلاط مهنّا بالنصر على اعتبار أنه تخليص لسكان المدينة من حكم جائر:

فلولاك لم تفصل عرى الإصر عنهم ولا انفك من ريق الأذى لهم أسر
أعدت نهارا ليلهم ولطالما أراهم بنجوم الليل في أفقه الطهر⁽²¹⁾

وتضاعفت قوة المعتمد، وزاد غروره بمحاولة ضرب بني زيري ملوك غرناطة، واستولى على بعض قواعدهم الشمالية سنة 465هـ إلا أنهم وقفوا في وجهه واستعانوا بملك النصارى ألفونسو السادس نظير أموال وافرة، ولم يكن أمام المعتمد إلا أن يضاعف عطايه على الملك النصراني ذاته في محاربتة لهم مضيفا له مكتسبا جديدا كإغراء وهو عدم تعرضه لتوسعاته



أ.سامية جباري

المسيحية في طليطلة، وأن يتركها ابن عباد لمصيرها، فما كان على ألفونسو إلا أن يجاري الطرفين معا، فيلحقهما الخور والوهن، ويزداد قوة وغلبة عليهم.

وعظم التنافس بين الملوك للاستلاء على المدن المجاورة، فما إن أنس بلاط بطليوس ضعفا في مملكة طليطلة حتى سارع المتوكل بالاستيلاء على مجريط، ووقف الشعراء مهئين كقول أبو الخطاب بن عطيون:

رميت قصي الثغر بالجيل شزبا هبطت على عذر فأصعدن في نجد
وأقبلتها مجريط شعتا كأنها كواسر عقيان تقضين من فند
فلما رأت مجريط وجهك أقبلت لعزتك القعساء في ذلة العبد⁽²²⁾

وفي خضم هذه الصراعات وجد الملوك من يبرر تصرفاتهم فلهج الشعراء المتزلفون بأحقية قتال الفئة الباغية استنادا لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾⁽²³⁾ وقد زحرت المادة الشعرية بذلك.

على سبيل المثال قال ابن المعلم:

مدوا إليك أكف البغي فأنجذمت وقد خلت منهم بالسيف أقفاء⁽²⁴⁾

وقال ابن الباجي:

فتوح يموت الحاسدون شجا لها فليت حليف البغي يحيا فيخبر⁽²⁵⁾



انعدام الوحدة في النضال لدى ملوك الطوائف

وأحيانا أخرى يصفونهم بالمروق والعصيان فيستبيحون دماءهم كقول ابن دراج في مندر بن يحيى:

عجبت لمارق يعصيك جهلا وقد سبقت إليه لك الأيادي⁽²⁶⁾

وكقول ابن زيدون:

ونجحك سبل الرشد في قمع من غوى وعدلك في استئصال من جار واعتدى⁽²⁷⁾

وبينما الأمراء العرب في تناحر وتباغض نجد القوى النصرانية كلها تتحدّ من أجل استرداد البلاد، فقد تجاوزوا الإرغام على دفع الجزية وأخذ الحصون والقلاع إلى إعلانها حربا عقدية تحت إشراف البابوية وأسموها حروبا صليبية.

من هذا المنطلق سارعوا إلى شن حرب لا هوادة فيها نابعة من شعورهم العدائي للمسلمين، وبأن الأرض اغتصبت وغان وقت استردادها وغيروا من سياستهم الداخلية، فقد كانت المجتمعات النصرانية مفككة العرى، وكان التكالب على العرش بالغاً أشده، تراق من أجله الدماء، وتزهق الأرواح، ولأجل تحقيق النصر في حربهم هذه، بادرت الكنيسة إلى فرض نوع من احترام أوامرها وتقديس مراسيمها واعتبارها وحيا من الله لا يقبل تبديلا أو تحويرا، وعن طريق هذا الاحترام فرضت على جميع العناصر المتضاربة نوعا من وحدة الصف ووحدة الرأي فيما يخص النصارى من المسلمين وأعلنت حرب الاسترداد وأتحدت كلمة الأعداء متخذة شكلها الرسمي لمفهوم الحروب الصليبية التي تعتمز قطع دابر الإسلام والمسلمين في الأندلس.



أ.سامية جباري

فكانوا كلما دخلوا مدينة إسلامية إما أن يتركوها صحراء جرداء قد محيت آثارها الإسلامية كما فعلوا في طليطلة إذ صورها الشاعر بقوله:

طليطلة أباح الكفر منها حماها إذ ذا نبأ كبير

وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم المصير

أو يسكنوا فيها رعاياهم النصارى ليشيدوا الكنائس كما فعلوا في قرطبة يقول:

وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير

مساجدها كنائس، أي قلب على هذا يقتر ولا يطير

أو يأخذوا أهلها بالمعاملة القاسية كالإحراق والقتل كما فعل السيد الكومبيوطور مع أهل بلنسية.

وقد حقّ الفازازي حين صوّر تكالب هؤلاء الأمراء في قوله:

الروم تضرب في البلاد وتغنم والجور يأخذ ما بقي والمغرم

والمال يورد كله قشتالة والجنّد تسقط والرعية تسلم

وذووا التعيين ليس بهم مسلم إلّا معين في الفساد مسلم

أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحم⁽²⁸⁾

وقد وصل التحالف بملوك الطوائف إلى حد إرسال التهنة لألفونسو كلما استولى على مدينة وضمها إلى ملكه، فهذا ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه إلى ألفونسو عند استلائه على طليطلة قصد تهنتته حاملا الهدايا النفيسة فجزاه بأن أعطاه



انعدام الوحدة في النضال لدى ملوك الطوائف

قردا احتقارا له، ولم يمنع خضوع هذه الدويلات لبعض القوى النصرانية وأداء الجزية لها من أن تكون عرضة لحرب استنزاف متواصلة بسبب أو بدون سبب تمهيدا للاستيلاء عليها، وقد شجع النصارى على سلوك هذه السياسة ما بلغه المجتمع الأندلسي من ترف حضاري وما انغمس فيه من حياة ماجنة أعمدت فيها روح الشهامة والشجاعة والفروسية.

فتوالى سقوط المدن وتغلب العدو النصراني باسترداده أهم مناطق نفوذ لدى المسلمين، وجاءت معها اعترافات المخلصين للوطن والدين أن ما يحدث من انخيار للكيان الإسلامي بالأندلس إنما هو نتيجة إغراق الحكام والرعية في الذنوب، فهو عقاب من الله على تفريط المسلمين في دينهم يقول ابن عبد البر في هذا المقام: "...لو كان شملنا منتظما وشعبنا ملتئما وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكا وكالأنامل في يدنا اشتراكا، لما طاش لنا سهم ولا سقط لنا نظم، ولا ذل لنا حزب ولا فل لنا غرب ولا روع لنا سرب"⁽²⁹⁾

وبذلت جهود كثيرة لأجل لم الشمل وتحقيق الوحدة حيث سارع المخلصون من أمثال الباجي وابن حيان وغيرهم كثير في التنبيه للأخطار المحدقة بالمسلمين، داعين إلى لم الشمل والتمسك بالأخلاق الفاضلة والعودة إلى الدين الصحيح ولهجت ألسنة الشعراء بذلك محاولين إذكاء القرائح بالحماسة الدينية، مصورين ابتعاد الملوك عن القيم النبيلة التي تحفظ للإنسانية كرامتها وعزتها.

قال ابن الجند مصورا تخاذل هؤلاء الملوك:

ناموا وأسرى لهم تحت الدحى قدر هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح يحدو به ملهياه الناي والوتر



صمت مسامعه غير نعمته مما تمر به الآيات والصور
تلقاه كالعجل معبودا بمجلسه له حوار ولكن حشوه خور⁽³⁰⁾

غير أن هذه المحاولات لم تؤت أكلها بل ظلت حياة الدعة والترف مطلب كل
حاكم غير مباليين بما يحدث، غير مدركين أن تحاذلهم وتفرقهم إنما هو انخيار للكيان
الإسلامي بالأندلس .

الهوامش

- 1- بوتشيش: محطات في تاريخ التسامح مع الأديان في الأندلس في مجلة دراسات أندلسية، العدد 31، جويلية 2004، ص. 73
- 2- المقرئ: نفح الطيب، ، تحقيق احسان عباس، بيروت 1968. ج 1، ص 332
- 3- ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنصال، ط/2، بيروت 1956، ص. 29
- 4- المقرئ: نفح الطيب، ج 1، ص. 354
- 5- المقرئ: نفسه، ج 1، ص. 398
- 6- المقرئ: نفسه، ج 1، ص. 398
- 7- مدينة عظيمة بناها الناصري الأموي، سنة 325هـ.
- 8- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ص. 123
- 9- المراكشي: نفسه، ص. 123
- 10- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، (دول الطوائف)، ط 2، تونس 1969. ص 418
- 11- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط 1/بيروت 1962. ص 28
- 12- إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، ط 13/ 1991 ج 3، ص 197
- 13- محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص. 419



انعدام الوحدة في النضال لدى ملوك الطوائف

- 14- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان وبروفنصال ط/2، بيروت ج3، ص.239
- 15- ابن الخطيب: نفح الطيب ج 5، ص.245
- 16- عبد الكريم تواتي: مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، ط1/1967 ص.479
- 17- عبد الله عنان: دول الطوائف ص.74
- 18- عبد الله عنان: نفسه ص63 .
- 19- ابن عذاري: البيان المغرب ج3، ص.280
- 20- المعتمد بن عباد: ديوانه، تحقيق رضا الحبيب السويسي، تونس1975، ص105 .
- 21- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص.517
- 22- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت ق3، ج3، ص.776
- 23- الحجرات: الآية 9.
- 24- ابن بسام: الذخيرة ق2، ج1، ص.120
- 25- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب / تحقيق شوقي ضيف بيروت ج1، ص.405
- 26- ابن دراج القسطلي: ديوانه، تحقيق محمد علي مكّي، ط2/، ص.99
- 27- تواتي: مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، ص.596
- 28- المقرئ: نفح الطيب ج5، ص.355
- 29- ابن بسام: الذخيرة، ق3 ص178 .
- 30- ابن سعيد: المغرب: ج1، ص.340.